الفكر السياسي والممارسة السياسية

عند الأمير عبد القادر الجزائرى

د. إسماعيل زروخى(*)

إن الاهتمام بشخصية الأمير عبد القادر يعد من أهم المسائل التى تستحق البحث والدارسة لأنها تشكل حلقة من حلقات تطور مجتمعنا السياسى فى المجالين الفكرى والوطنى . والأمير عبد القادر ليس مجرد شخصية بطولية تاريخية قاومت أكبر قوة فى عصرها ، وإنما هو أيضا رجل فكر ، ساهم فى بناء النهضة العربية الحديثة . أن جهوده تجاوزت حدود الجانب الوطنى المحلى إلى الإطار القومى الإسلامى ، فلم يقتصر على التخطيط لمقاومة العدو بالسلاح فقط ، بل كان يسعى إلى مقاومته بالفكر والقلم ، نعتقد أنه من واجبنا اليوم أن نقوم بدراسة أفكاره لنضعها فى نسق مترابط يحدد أطرها العامة لكى يبقى لها البقاء والاستمرار ، على أن يتم ذلك من خلال الممارسة السياسية المرتبطة بالمقارنة والتنظيم ، لأن هذه الممارسة كانت فى أول الأمر مجرد فكرة فى ذهن صاحبها ، ولذا فإنما تتطلب قراءة فلسفية وسياسية نظرا لما تحتويه من وسائل وطرق ومناهج على مستوى التنظيم والتأسيس .

والمعروف أن المقياس لكل نهضة أو تطور هو مجموعة التنظيمات التى تشتمل عليها الأمة أو الدولة . وذلك ما أحدثه الأمير فعليا سواء على مستوى التنظيم أو على مستوى الممارسة . ولذلك يعد الأمير عبد القادر من أوائل المفكرين والساسة العرب المسلمين الذين ساهموا فى بناء وتأسيس النهضة العربية الحديثة . وسأركز دراستى على الـناصر الأساسية التى تبدو أساس النهضة السياسية التى كان للأمير عبد القادر دور كبير فيها ، وسيتحدد ذلك ويتضح من خلال مجموعة

(*) أستاذ محاضر بجامعة قسنطينة ، ورئيس اللجنة العلمية .

من التساؤلات نطرحها على أنفسنا ، ونحن مضطرين للإجابة عنها وهذه الأسئلة هى : ألسنا مطالبون بتحديد الأسس التى قامت عليها النهضة السياسية الحديثة ؟ ألم يستخدم الأمير عبد القادر آلياتها النظرية والتطبيقية ؟ ألم يتمثل الأمير عبد القادر أسسها المتمثلة فى الديمقراطية والحرية ؟ ألم يحدد المفاهيم التى كانت نمطًا مميزًا للنهضة الحديثة فيما يتعلق بالوطن والوطنية ؟ ألم يشجع العلم والمعرفة ؟ ألم يطبق العدل ؟ أليست هذه هى عناصر النهضة الحديثة التى قامت عليها الدول لا فى الوطن العربى بل فى أوربا ؟ ألسنا مطالبون بالتدقيق فى نصوص الأمير عبد القادر التى اشتملت على هذه المعانى ؟

ولدراسة شخصية الأمير عبد القادر دراسة علمية موضوعية نجد أنفسنا ملزمين بوضعه فى سياقه الزمنى والمكانى لتحديد آفاق فكره السياسى وممارسته السياسية . والواقع أنه قام بثورة على ما كان سائدًا فى عصره سواء على المستوى السياسى المرتبط بالسلطة أو على المستوى الاجتماعى المرتبط بالطبقات الاجتماعية . ولذلك فإنه حارب فى عدة جبهات :

حارب المستعمر كما حارب القبائل ذات النفوذ والسيطرة فى العصر العثمانى ، وكذلك حارب أيضًا العقلية التى غلبت على الإنسان الجزائرى آنذاك ، والتى لم تكن على استعداد لتقبل التحديث الذى كان يمارسه ويدعو إليه الأمير عبد القادر ، إنها ثورة كلية شاملة ، أنهكت قواه فى المدة التى قضاها حاملاً لواء المقاومة ، فلم يكن عدوه فى ذلك الوقت الاستعمار وحده بل تلك العناصر مجتمعة .

أولاً : العرب والغرب الأوربى وبداية عصر النهضة :

كان للغرب الأوربى التأثير الكبير على أغلب المفكرين العرب المسلمين الذين حملوا لواء النهضة العربية فى القرن التاسع عشر ، نظرًا لاحتكاكهم به. ولولا ذلك الاحتكاك لما تبين للعرب واقعهم المتقهقر . ويظهر ذلك بوضوح فى

فكر أغلب المصلحين العرب المسلمين الذين برزوا فى بداية عصر النهضة « القرن التاسع عشر » ، من الطهطاوى مرورا بخير الدين التونسى ، وانتهاء بمحمد عبده والأفغانى . ولكن ما تميز به الأمير عبد القادر عن أقرانه من المفكرين العرب المسلمين هو أن فكره التنظيمى التأسيسى كان إبداعا ذاتيا ، لأنه لم يحتك بالغرب الأوربى ولم يتأثر به ، وإنما كان يدافع عن إثبات كيانه وهويته . وما قام به يضاهى التنظيمات التى كانت فى الغرب والتى كان يدعو إليها مفكرو النهضة العربية ، سواء على مستوى التنظير أو الممارسة . وهذه خصوصية لا بد من التركيز عليها فى حياته . ولا يعنى هذا أنه كان يجهل صور الحضارة الغربية وما وصلت إليه علميا وسياسيا ، إذ الواقع أنه كان يشيد ببعض مظاهرها وينتقد أوضاع العرب الذين لم يسايروا تلك الحضارة ، فالروح العلمية الموضوعية التى كانت تميز شخصيته أشادت حتى بالفرنسيين الذين كان يقاومهم باعتبارهم العدو الذى جاء غازيا لوطنه ، فهو يعترف بتقدمهم وتفوقهم فى السياسة وفى مآثرهم على الحكام المغاربة . وقد أشار إليه حين تلقى ردود الفرنسيين على شروط الاستسلام حيث قال أن: « من وفاء كلمتهم وضبط قوانينهم وأنهم ليسوا كسلطان المغرب لعدم معرفة المغاربة بأحوال الرئاسة ومآثر السياسة »(١) .

إن هذا الإقرار والاعتراف من الأمير عبد القادر بسمو الحضارة الفرنسية ليس الهدف منه الخضوع والاستسلام لها ، وإنما ضرورة النظر إليها على أنها حاضر معاش ، يجب النظر فيه وتأليفه مع ما يتوافق مع تراثنا الذى كان يحمل نفس المظاهر ، حتى يمكننا النهوض والتقدم . وكانت هذه وجهة نظر كثير من المفكرين العرب المسلمين فى بداية النهضة العربية ، كخير الدين التونسى الذى كان يرى أنه لا بد من إيجاد توافق بين الحضارة الغربية ومبادئ الشريعة الإسلامية ، لأن التمدن الأوروبى كان كالسيل الجارف لا يقف أمامه شئ إلا استأصلته قوة تياره المتتابع وكان يخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار إلا إذا تنبهت هذه الممالك وحذوا حذوه وجروا مجراه فى التنظيمات الدنيوية

وعندئذ يمكن نجاتهم من الغرق[٢] . ونفس الدعوة دعا إليها الطهطاوى الذى عاش فى فرنسا وعاين فيها التقدم والتحضر الذى وصلت إليه واستخلص أن : « مخالطة الأجانب « الأغراب » لا سيما إذا كانوا من ذوى الألباب تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب »[٣] .

ثانيا : الأمير عبد القادر وتنظيم الدولة :

قامت النهضة الحديثة أساسا على التنظيم السياسى للدولة ، فكانت كل الدعوات العربية فى بداية النهضة تتجه إليها فى شكل مجموعة من القواعد الفكرية والتنظيمية ، سواء بالتركيز على ما كانت عليه حضارتهم فى غابر الأزمان ، أو ما هى عليه الحضارة الغربية فى عصرهم ، غير أن كثيرا من تلك الدعوات فى الفكر السياسى العربى سواء على مستوى التنظير أو على مستوى الممارسة لم يكتب لها النجاح . ونحن نعتقد أن ذلك يرجع إلى أن القواعد الفكرية التى تبنوها لم تعبر عن واقعهم العربى الإسلامى بقدر ما عبرت عن واقع المجتمعات الغربية ، كما أنها لم ترق إلى مستوى التنظيم الشامل لحياة مجتمعاتهم ، أما الأمير عبد القادر فقد نجح فى تنظيماته لأن فكره نبع من واقع ذاتى بخصوصية متميزة عن الواقع الغربى ، فهو لم يسافر إلى الغرب ولم يتمثل حضارته بخصوصيته الخاصة ، بل أنه كان يكيف كل ما لاحظه وشاهده على مجتمعه بخصوصية مغايرة للخصوصية الغربية . وكانت تلك هى عبقريته المتميزة التى استهدفت دفع مجتمعه إلى النهضة والتقدم وفق تلك الخصوصية . وعلى ذلك يمكننا القول — دون تحيز — أنه الوحيد فى القرن التاسع عشر الذى استطاع أن يجسد مبادئه الفكرية على مستوى الدولة التى أقامها فكرا وممارسة . وكانت ممارساته بالتالى فى ذلك العصر من أهم ما أنجزه العقل السياسى العربى الإسلامى فى القرن التاسع عشر ، خلافا لما كان متعارفا عليه فى الفكر السياسى العربى السابق ، ذلك أنه أحدث قفزة نوعية متميزة فى الفكر وفى الممارسة ، وليس كما يدعى البعض أنه بقى مطوقا بملابسات الفكر العربى الإسلامى السابق[٤] .

فالدولة التى أقامها الأمير عبد القادر كانت تضاهى الدول المعاصرة لها فى الحداثة ، لا فى الوطن العربى فحسب ، بل حتى فى الغرب الأوربى نظرًا لما اشتملت عليه من مؤسسات تنظيمية وآليات تحديثية من ديمقراطية وعدل ومساواة ، واستطاعت أن تتجاوز الموروث السياسى للدولة العثمانية التى كانت تحكم آنذاك الوطن الجزائرى وأغلب مناطق العالم العربى . فكانت دولته كما يقول عبد الباقى الهرماسى ، أكثر تمركزًا وتحركًا وقوة ، وذلك ما لم تكن عليه يومًا دولة الترك(٥) . فالدولة القوية الحديثة المركزية التى بناها لم تكن تلك التى تتميز بالقوة القهرية الاستبدادية المهولة ، التى تمارس القهر والاستبداد على رعاياها ، لا واجب عليها إزاءهم ، بل إنها الدولة التى تمتلك تنظيمات وتشريعات للممارسة السياسية ، أى أنها عبارة عن أجهزة وأدوات وآليات للعمل السياسى والاجتماعى ، ولها من الوظائف وعليها من الواجبات أكثر مما لها من الحقوق ، فالأمير عبد القادر لم يمارس فى دولته نمط الدولة القهرية الاستبدادية ، هذا النمط من التنظيم السياسى الذى ساد الدولة العربية الإسلامية فترة زمنية طويلة . وما فعله من تغيير على مستوى الممارسة السياسية ، سواء على مستوى المظهر أو المضمون يعد بحق ثورة فى تاريخ الفكر السياسى الإسلامى .

إن الدولة القهرية الاستبدادية من وجهة نظر الأمير عبد القادر ليست الدولة التى تمارس الاستبداد فحسب ، بل حتى التى يصل فيها الحاكم إلى الحكم عن طريق القوة . وذلك ما أدركه الأمير عبد القادر حين قال : « إن أهل ناحيتنا هذه اتفقوا أشرافًا وعلماء ، وأهل الحل والعقد على ولايتنا وملازمة بيعتنا »(٦) ، أى أنه كان يعتبر أن الدولة الفعلية والقوية هى التى يصل فيها الحاكم إلى الحكم بطريقة ديمقراطية برضاء الشعب عليه وانتخابه أو مبايعته . فهو لا يفرق بين « البيعة » و « الانتخاب » ، لأنه أدرك أن المفهوم السياسى المتداول فى الممارسات الحديثة هو الانتخاب. لذلك أراد أن يكيف المفاهيم الإسلامية المتداولة فى الممارسة السياسية الإسلامية بالمفاهيم السياسية الناشئة ،

لأن هذا المبدأ الانتخابى هو الذى أحدث القوة والتقدم بالنسبة للدول الحديثة . لذلك كان حريصا على الامتثال له . وامتثاله له كان نتيجة إدراك مضمونه وتأثيره على الحياة السياسية . وقد استخدم لفظ « انتخبونى » فى وصوله إلى السلطة ، ولم يستخدم لفظ « أمرونى » الذى كان من أهم المفاهيم المتداولة فى الفكر السياسى العربى الإسلامى على مستوى الممارسة . ذلك أنه قال بشأن وصوله إلى الحكم : « انتخبونى لإدارة حكومة بلادنا وقد تعهدوا أن يطيعوا فى السراء والضراء ، وفى الرخاء والشدة ، وأن يقدموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة »(٧) .

والعقد الناشئ من هذه البيعة أو الانتخاب – من وجهة نظر الأمير – ليس خضوعا للحاكم ، وإنما هو خضوع للقانون الذى يوحد بين الحاكم والمحكوم ، وهو منشأ القوة . لذلك كان يقول بعد انتخابه ومبايعته : « ولقبول هذه المسئولية اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا أن عليهم دائما واجب الخضوع فى كل أعمالهم إلى نصوص وتعاليم كتاب الله وإلى الحكم بالعدل فى مختلف مناطقهم »(٨) ، أما ما يلتزم به هو فى هذا العقد فهو الإنصاف ، واعتماد النوازل المشهورة ، والفروع المأثورة من إتباع الكتاب والسنة والإجماع من السلف الصالح(٩) . ألم تكن هذه المسألة السياسية هى بداية الثورة لتأسيس الدول الحديثة . أليس معنى ذلك أن الأمير عبد القادر قد أدرك معنى الاختيار فى الوصول إلى السلطة ؟ ألا يحق لنا من هذا القول اعتباره من أوائل المفكرين والساسة العرب المسلمين الذين أسسوا نظرية الدولة الحديثة مبنية على الديمقراطية؟ ألم تكن الديمقراطية هى اختيار الشعب لحاكمه ؟

وكانت ممارسة السلطة السياسية عنده – رغم هذا الاختيار – تسير بصورة جماعية ، حيث كان يشاركه فيها من هم مؤهلون للمشاركة ، وهم عنده أهل العلم وحدهم فقط . وكان يبعد من حوله الغير مؤهلين والذين كانوا نافذين فى تسيير الدولة العثمانية وهم الأجواد ، حيث كان يقول : « كنت دوما أتحاشى استعمال

الجوادة « الأجواد » واستعين بالعلماء وأهل الدين في تسيير الحكم »[١٠] ، وكان الأمير عبد القادر هنا يميز بين نوعين من حملة المعرفة والعلم . العلماء الذين يحملون المعارف العقلية والعلمية[١١] ، والعلماء الذين يحملون المعارف الشرعية الدينية ، وكلاهما ضروري وجوده والاستعانة به في تسيير شئون الدولة .

إن هذه المعاني الجديدة التي بنى عليها الأمير عبد القادر دولته هي التي جعلت الأمة تتفاعل معه وتذعن له بالطاعة والخضوع . ولا غرابة في ذلك كما يقول عبد الباقي الهرماسي لقائد أعاد لها الثقة والاطمئنان . وبهذه الثقة كان الأمير عبد القادر قد أقام أول قاعدة للتوحيد الوطني على الرغم من قصر فترة تجربته[١٢]. إن هذه الممارسات السياسية هي التي تجعلنا ملزمين بوضع تشريعاتها في أطرها وأنساقها الفكرية الفلسفية والسياسية ، وتنقلها للأجيال على أنها نظام فكري سياسي قبل أن تكون ممارسة سياسية ، وهذا هو الطريق الوحيد الذي يضمن له البقاء والاستمرار .

ثالثا : الأسس السياسية في فكر الأمير :

١ — الوطن والوطنية :

كانت مسألة الوطن والوطنية من أهم المبادئ التي تأسست عليها الدول الحديثة ، وكانا معيارين لكل نهضة سياسية حديثة ، حيث أصبحت معانيهما وممارستهما مغايرة لما كانا يعرفان به . وهذه المسألة لم تكن غائبة عن رجل حمل لواء نهضة مجتمعه وأمته ، أعني بذلك الأمير عبد القادر الذي تطرق إليها ، وإن لم يكن يختلف فيها كثيرا عما ذهب إليه ابن خلدون في دراسته لتركيبة المجتمع العربي الإسلامي البدوية والحضرية ، وغيره من المفكرين العرب المسلمين ، مما يجعلنا نعتقد أن بداية النهضة العربية الحديثة تبدأ من عصره ، وليست من القرن التاسع عشر ، فالأمير عبد القادر استخدم كلمة الوطن مرارا[١٣] ، ولكن الوطن بالمفهوم السياسي الحديث ليس مجرد مكانا للسكن ،

ولا أرضا بدون سكان ، فالوطن بلا سكان لا معنى له ، والسكان بلا انتماء ولا شعور ولا مدافعة عن الوطن لا بقاء لهم . وقد أدرك الأمير عبد القادر تلك الخصوصية الحديثة التى أصبحت تميز الإنسان العربى الحديث على مستوى الهوية ، الذى يجب عليه أن يجسدها فعليا ، فالإنسان العربى إن كان فى السابق يفتخر بانتسابه إلى قومه وقبيلته ، فإنه أضحى فى الواقع وفى المفهوم الحديث ينتسب إلى وطنه مكان سكناه أكثر مما ينتسب إلى قومه ، وفى ذلك يقول : « إذا انتسب إلى البلد ذهب قومه وتنوسيت أسلافه فصار النسب مجهولا لا باحث على حفظه ولا حامل على تعريفه »(١٤) . وهذه من مستلزمات الصيرورة الاجتماعية التى تبعث التغير الحاصل فى تركيبة المجتمع العربى الإسلامى والتى يجب مسايرتها والحياة وفقها ، لأنه كما قال أن العرب : « حين دخلت قرى الشام والعراق ومصر والمغرب وغير ذلك ، فلا تزال تلقى حلبيا أو حمصيا أو كوفيا أو بصريا أو قرطبيا أو باجيا وهو تميمى أو قيسى أو أزدى أو غيره وكثير منهم لا يعرف نسبه »(١٥) . فالانتساب للقبيلة أصبح ليس نموذجا لتركيبة المجتمع الحديث ولا الدولة الحديثة . وصفة المواطنة لا تتحدد عليها ، وإنما تتحدد على كل من ينتمى للوطن مهما كان جنسه ومهما كانت قبيلته . وهذا ما أدى بكثير من الناس فى العصر الحديث إلى التباهى والتفاخر بانتسابهم إلى أوطانهم لا بالانتساب إلى أعراقهم . فأصبح كل واحد يمتدح وطنه للخصوصية التى يتميز بها : « فنجد هذا يمدح أرضه بكثرة المياه للاتساع فى الشرب والطهارة والنقاوة ونحو ذلك ، وهذا يمدح أرضه بالبعد عن المياه كجود منابتها وصحة هوائها وذهاب الوخم منها ، وهذا يمدح أرضه بالسهولة بجودة المزارع فيها وكثرة ربيعها واتساع خيرها ، وهذا يمدح أرضه لكونها جبالا لتمنعها وعزة أهلها وحسن مائها وهوائها وقناعتها وغير ذلك »(١٦) .

٥ - إن الانتساب إلى الأرض مهما كانت يتطلب الارتباط بها ، وهى فى عين سكانها تمثل ميزة خاصة بهم مهما تكن تضاريسها ، فإنه لا بديل لهم عليها ، ومن ثمة فلا بد عليهم من السعى إلى تحسينها وإغنائها وإثرائها ، وحمايتها والمدافعة

عنها . وإذا كان الأمير عبد القادر قد أدرك هذه الخصوصية وحث أبناء وطنه على المدافعة عن وطنهم ضد كل غريب دخيل ، فإنه جسدها حسا ومعنى ، لأنه لا وطن آخر يجنحون إليه إلا الوطن الجزائرى . ولذلك أليس من حقنا التساؤل عما فعله فى هذا الشأن : ألم يكن فعلا هذا هو المعنى الوطنى الذى بنيت عليه الدول الحديثة ؟ ألم تنشأ الوطنية الحديثة من هذا المعنى ؟ ألم يكن الأمير عبد القادر رائدا فى إعطاء معنى الوطنية التى يرتبط فيها المواطن بوطنه حين قال : « ومن أسباب المحبة والحنين حب من كان فيها من القرابة والأحباب وتذاكرهم وتذكارهم عند تذكارها »[١٧] ؟

إن الوطنية التى يقول بها الأمير عبد القادر والتى كانت ميزة الفكر السياسى الحديث ، هى التى تتحدد فيها العلاقات الاجتماعية من تعاون ومحبة ، على أساس الحياة المشتركة فى الوطن الواحد ، لا على أساس التفاضل الجنسى والعرقى ، وبهذه الممارسة والرؤية والمفهوم استطاع الأمير عبد القادر أن يؤلف بين كل سكان الجزائر ، ويحملهم على لواء المقاومة المشتركة للدفاع عن وطنهم . وهذه هى قمة الوطنية فى مفهومها الحديث والمعاصر ، وهى مخالفة حتى للمفهوم الأوروبى الحديث الذى يرى أن الوطنية هى التى نجحت فى تكوين كيان سياسى وحكومة مستقلة[١٨] . وهذا ما فعله الأمير حتى قبل تكوين الكيان السياسى المستقل ، لأنه كان يعتبر أن العرب أسبق من الأوروبيين فى الارتباط بعضهم بالبعض ، وبينهم وبين أوطانهم . وهذه من أخلاقياتهم وشيمهم الباعثة على الألفة والمحبة . وهى طبيعية فيهم يجب فقط تذكيرهم بها لأنهم ابتعدوا عنها . فى ذلك قال : « فالأمة العربية أكثر وأشد من جميع الأمم فى ذلك لأنهم فى جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية ، وأخلاق مرضية ، وأفعال كريمة ، وهمم عظيمة ، وعقول راجحة وآراء ناجحة ، وشرف صميم ، وأنفة من كل خلق ذميم، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة »[١٩] ، أى أنه إذا كانت ، هذه هى معانى الوطنية ، فإن العرب عرفوها قبل أن يعرفها الغربيون

فى حضارتهم المعاصرة ، ولكن إن ابتعد العرب عنها فيجب السعى لاستردادها ، لأنها شيمة من شيمهم الطبيعية ، فكل حركة نحوها سهلة التحقيق والممارسة .

٢ – العدل والمساواة :

أجمعت كل الآراء والأفكار التى أسهمت فى تأسيس النهضة العربية على أن النهضة فى أوروبا لم تقم إلا على أساس العدل والمساواة . وإذا كان العرب يريدون مسايرة تلك النهضة فلا بد من أن يتخذوا من هذه الأسس ركيزة لهم .

وكان الأمير عبد القادر من أوائل العرب المسلمين ليس القائلين بهذا الرأى فقط ، بل والممارسين له ، ذلك أن شعاره السياسى فى تلك الممارسة هو أن جميع المواطنين سواسية ، وأن القانون الذى يخضع له الجميع هو ما أتى به القرآن الكريم ، حيث كان يقول : « لن آخذ غير القرآن . لن يكون مرشدى غير تعاليم القرآن . والقرآن وحده ، فلو أن أخى الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات »[٢٠] . إنها المساواة فى أكمل صورها ، وإنه العدل فى أقصى حدوده ، وكان فى تجسيده لهذا المبدأ يعتمد على القضاة واختيار العدول منهم[٢١] .

وكان هؤلاء القضاة يفصلون حتى فى القضايا المتعلقة بالجيش ، أو بين الرعايا ومسئوليهم . وكان ممثل الأمير يجوب الأسواق وينادى من ظلم منكم من طرف الأغا فليتقدم بشكواه إلى الأمير . وبهذه الممارسة تكونت الوحدة والمساواة لا بين الرعايا بعضهم وبعض فحسب ، بل بين أفراد القبيلة ورئيسها[٢٢] .

إن سياسة المساواة التى تشبع بها الأمير ومارسها إلى درجة التقشف فى جميع مظاهر حياته هى التى أكسبته ولاء رعاياه وطاعتهم ، لأنها – كما بينا وكما – كان يرى ، قريبة من وجدان رعاياه ، وهى طبيعية فيهم ، ولذلك كان يقول عن نفسه : إننى أول من مارست التقشف ، وأول من ضرب المثل بلبس ثياب بسيطة بساطة ثياب أكثر خدمى تواضعا . وهذا التساوى فى اللباس لم يكن كما

يعتقد البعض تمويها للعدو من أجل تفادى ضرباته ، وإنما هو كما أجاب بنفسه وقال : « ما فعلت ذلك خوفا من تميز نفسى أمام ضربات قنابل العدو ، ولكننى فعلته لأننى كنت أرغب أن لا أفرض على العرب إلا ما أفرضه على نفسى »(٢٣). ألم تبن الدول الحديثة على هذه المساواة وهذا العدل ؟ ألم يدرك الأمير بأن هذه المقومات السياسية هى التى ترتقى بالأمم نحو التقدم والإزدهار لذلك لا بد من استيعابها ؟ ألم تكن هذه الأفكار على زمانه فيها من الجرأة ما لم يتصوره العقل ، خصوصا فى مجتمع مثل مجتمعه عاش فى ظل الظلم والقهر والتفاوت بين الناس حتى غدت هذه الانحرافات هى أركان الحياة الفعلية ، بينما غدا ما يخالفها صورة غير طبيعية ، لقد صار هذا الوضع هو السائد حتى على مستوى علماء الأمة الذين كما يقول عبد الله شريط عمل الكثير منهم على إشاعة مفاهيم معاكسة تزلفا للحكام فحرف بعضهم فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم وأخرجوها مخالفين روح الإسلام ذاته(٢٤) .

وكان الأمير عبد القادر يرى أنه حتى النظام السياسى الذى تجسدت فيه هذه المظاهر السياسية الحديثة العادلة ، أى النظام « الجمهورى » فإنه ليس غريبا عن الإنسان العربى ، لأن معناه عربيا وعرفته العرب قبل الأوروبيين وكان هو أساس السياسة العادلة سواء عندنا أو عندهم ، لأن فيه يستوى : « الرئيس والمرؤوس ، الشريف والمشروف ، الرفيع والوضيع ، ليجزى كل واحد على قانون الآخر . ولا يختص بأحكام مفضول على فاضل ولا يقع التصرف على الأدنى لما له قلة دون الأعلى ، ولا يتجبر بالتكبر عالى منزلة على سافل . ويجرى حكم شرع الإنصاف على من تجاوزوا الحد المشروع كيف كان حسبا ونسبا ، ولأن التفرقة بين الناس فى الحكم هو سبب هلاك كثير »(٢٥) ، فمن ابتعد عن هذا الحكم يكون مآله الهلاك والاندثار ، ولم تصل الأمم الأوروبية إلى تلك العظمة الحضارية إلا باستنادها على هذا الحكم ، وفى هذا يقتدى الأمير عبد القادر ، بما أشار إليه الرسول ﷺ حين قال: «.إنما هلك من كان قبلكم ، إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا

سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ». ومن هنا يتضح أن هذا الحكم ليس من ابتكار الأوروبيين — وخصوصا الفرنسيين — وإنما يرجع إليهم الفضل فى أنهم طبقوه عمليا فى تسيير حياتهم السياسية بمقتضاه ، وفى هذا الشأن يقول : « وبهذا تعلم أن الجنس الفرنسوى فاق على جميع الأجناس الرومية والنصرانية بكونه يستعمل الفائدة وينقلها أينما وجدها ، ولا يقول هذه ليست لغتى أو ليست عادة بلدى أو وطنى ، فكأنهم سمعوا قول نبينا ﷺ للمؤمنين « الحكمة ضالة المؤمن يطلبها حيث يجدها » »[٢٦] ، أليست هذه عبقرية متميزة للأمير عبد القادر ، أدرك من خلالها أسرار قوة الدول وقوة سياستها . وكان يدعو إلى الأخذ بمظاهرها سواء فى السير على السنن السياسية التى ساروا عليها ، أو أخذها منهم كما أخذوها عنا ، وهذا امتثالا لقول رسول ﷺ السالف الذكر .

ولا أدعى هنا أننى أحطت بكل فكر الأمير عبد القادر السياسى ، لأن الرجل كالجبل الشامخ الذى يحتوى على كنوز متعددة ومجهولة ومن يستطلع خباياه يكتشف فى كل يوم معدنا جديدا ثمينا وما زال فكر الأمير يحتوى على كثير من الآراء والأفكار المجهولة عنا ، ولكن باستعدادنا للبحث فيها والتنقيب عنها يمكننا إماطة اللثام عنها ، وهذا ما نحاول القيام به ، وبالله التوفيق .

الهوامش

(١) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، سيرة ذاتية كتبها فى السجن سنة ١٨٤٩م ، تحقيق محمد الصغير بنانى ، محفوظ سماتى ، محمد الصالح الجون ، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٩٤م ، ص١٣٠ .

(٢) خير الدين التونسى ، أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك ، تحقيق المنصف الشنوفى ، تونس ، ط٢ ، ١٩٧٢م ، ص١٦٦ .

(٣) الطهطاوى ، الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ١٩٧٣م جـ١ ، ٣٩٨ .

(٤) محمد الصغير بنانى ، معالم شخصية الأمير عبد القادر من خلال شعره ، معالم فكره السياسى ، الثقافة ، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر ، العدد ٩٦ ، نوفمبر — ديسمبر ١٩٨٦م ، ص ١٣٩ .

(٥) محمد عبد الباقى الهرماسى ، المجتمع والدولة فى المغرب العربى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م ، ص٣٠ .

(٦) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص٩٦ .

(٧) شارل هنرى تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ترجمه وعلق عليه أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط٢ ، ١٩٨٢م ، ص١٥٦ .

(٨) المرجع نفسه ، ص٥٩ .

(٩) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ٩٧ .

(١٠) بسام العسلى ، الأمير عبد القادر ، دار النفائس ، ١٩٨٠م ، ص٣٩ .

(١١) يعتبر الأمير عبد القادر أن العقل من أشرف الخواص التى تميز الإنسان عن الحيوان ، وخاصية الشئ هى كماله ، وبهذا العقل يستطيع الإنسان أن يدرك العلوم ويعرف طريق الحق بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك ، ويتيقن حقائق الأمور ويراها منكشفة ، فإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، للمزيد من الإطلاع

على ما كتبه الأمير عبد القادر حول العقل يرجى الإطلاع على كتابه : المقـــراض الحاد ، لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالبـــاطل والإلحـــاد ، الطاســيلى للنشــر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٩م ، ص٩ وما بعدها .

(١٢) محمد عبد الباقى الهرماسى ، المجتمع والدولة فى المغرب العربى ، ص٣٠ .

(١٣) عبد الحميد بن هدوقة ، الأمير عبد القادر والمجابهة اللامتكافئة ، الثقافة ، العـــدد٧٥، ماى – جوان ١٩٨٣م ، ص١٩٧ .

(١٤) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص٢١٢ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص٢١٢ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص٢١٣ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص٢١٢ .

(١٨) عبد الله شريط ، مشكلة الحكم الإسلامى فى دولة الأمير ونظريـــة ابـــن بـــاديس ، الثقافة ، العدد ٧٥ ، ص٢٣٩ .

(١٩) الأمير عبد القادر ، المقراض الحاد ، ص٢٤٣ .

(٢٠) شارل هنرى تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ص٥٧ ، ٥٨ .

(٢١) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص٩٦

(٢٢) عبد الله شريط ، مشكلة الحكم الإسلامى فى دولة الأمير ونظريـــة ابـــن بـــاديس ، ص٢٤٠ .

(٢٣) شارل هنرى تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ص١٥٤ .

(٢٤) عبد الله شريط ، مشكلة الحكم الإسلامى فى دولة الأمير ونظريـــة ابـــن بـــاديس ، ص٢٤١ .

(٢٥) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص١٣٦ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص١٣٦ .